﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: 13 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

اجتمع للمؤمنين أسباب الظَّفَر ووعد الكريم بالنّصر

لما كان المقصود من ذكر وهَن المنافقين في القتال في الآيات السّابقة تقويةَ نفس النبيّ ﷺ وأنفسِ المؤمنين حتّى لا يرهبوهم، ولا يخشوا مساندتهم قريظة وخيبر؛ ناسب إعلام المؤمنين بأنَّ المنافقين وأحلافَهم يخشون المسلمين خشية شديدة، وُصِفَت شدّتُها بأنّها أشدُّ من خشيتهم لله تعالى، فإنّ خشية جميع الخلق من الله أعظمُ خشيةً، فإذا بلغت الخشية في قلب أحدٍ أن تكون أعظمَ من خشية الله؛ فذلك منتهى الخشية[1]، فهو انتقالٌ من بيان شأن المنافقين مع اليهود، إلى بيان شأن اليهود مع المؤمنين؛ لإبلاغ المؤمنين بأسبابِ النّصر المعنويّة، بعد إبلاغهم بأسباب النّصر الماديّة، فاجتمع للمؤمنين وعد الله بالنّصر مع ذكر أسبابه، وهذا غاية العطاء الإلهيّ للمؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: (حصن) أصلٌ واحِدٌ هوَ: الحِفْظُ والحياطَةُ والحِرْزُ، فالحِصْنُ مَعروفٌ والجَمْعُ حُصونٌ، قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، أي: مجعولة بالإحكام كالحصون، وقال: ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.[2]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 101، 102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (حصن).

2) ﴿جُدُرٍ﴾: (جدر) الجِدارُ، وهوَ الحائِطُ، وجَمْعُهُ: جُدُرٌ وجُدْرانٌ، فالجِدار: الحائط، إلا أنّ الحائط يقال اعتبارًا بالإحاطة بالمكان، والجدار يُقال اعتبارًا بالنتوّ والارتفاع، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ [الكهف: 82]، وقال: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾[1].

3) ﴿بَأْسُهُم﴾: (بأس) أصْلٌ واحِدٌ هوَ: الشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالبَأسُ الشِّدَّةُ في الحَرْبِ، وكل ما جاء في القرآن على صيغة (بَأسَ)؛ فهو من هذا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: 84]، وقال: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾[2].

4) ﴿شَتَّىٰ﴾: الشَّتُّ: تفريق الشّعب، يقال: شَتَّ جمعُهم شَتًّا وشَتاتًا، وجاؤوا أشْتاتًا، أي: متفرّقي النّظام، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: 6]، وقال: ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: 53]، أي: مختلفة الأنواع، وقال أيضًا: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، أي: هم بخلاف مَن وصفهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ من اجتمع على الباطل فاجتماعه فرقةٌ باطنيَّة

بيّنتِ الآيةُ الأولى هوانَ أمر اليهود والمنافقين في نفوس المؤمنين، ببيان أنّ هؤلاء الأعداء قد بلغ بهم الجبنُ والخورُ مبلغًا كبيرًا، فخشيتهم من المؤمنين أشدُّ من خشيتهم لله تعالى، وسبب ذلك أنّهم قوم لا يفقهون الحقّ، ولا يعلمون شيئًا عن عظمة الله تعالى وجلاله وقدرته، وتزيد الآيةُ الثّانيةُ ذلك المعنى بيانًا، فتذكر دليلًا يحصل في الواقع على جبنهم وخورهم، فتوضّح أنَّ هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين لا يقاتلونكم مجتمعين إلّا في قرى مُحصَّنة بالخنادق وغيرها، أو يقاتلونكم من وراء الجدران الّتي يتستَّرون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (جدر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بأس).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (شتت).

بها؛ لأنَّهم يعجزون عن مبارزتكم، وعن مواجهتكم وجهًا لوجه، لفرط رهبتهم منكم، وعلى الرّغم من أنَّهم يظهرون أمامكم متّفقين متعاونين إلّا أنّ بينهم عداوة شديدة، وذلك الّذي ذُكِرَ من شدَّة بأسهم فيما بينهم، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم، سببه أنَّهم قوم لا يعقلون الحقّ والهدى، وإنّما يُنساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشّهوات، بدون إدراكٍ لعواقب الأمور، أو للفهم الصّحيح[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع اللّام ودلالتها:

تهوين أمر اليهود والمنافقين في نفوس المسلمين

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ لام الابتداء الّتي تدخل على الجملة الاسميّة، فتزيد معناها قوّةً ووكادةً، وقد أوثر التّعبير بها في سياق الحديث عن اتّحاد المنافقين مع إخوانهم الكافرين من أهل الكتاب وتعاونهم ضدّ المسلمين دون أن يقول: (أنتم أشدّ رهبة)؛ لتهوين أمرِ الفريقين في نفوس المسلمين، بالإبلاغ في تأكيد أنَّهم أضعفُ مما يتصوَّرُهُم المسلمون.

تعيين مرجع الضّمير المنفصل في صدر الآية:

تعزيز الثّقة بالنّفس من مقاصد خطابِ الله للمسلمين

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ للرّسول ﷺ ومَنْ معه مِن المسلمين، والمعنى: أنتم أيُّها المؤمنون[2]، وخطابُ المؤمنين، يُعطيهم شرف الخطاب، ويُقرِّبهم من المخاطِب، ويُكسبهم نوعًا من الثِّقة في النَّفس، وينزع القلق تجاه المنافقين من دواخلهم، فيعلموا أنَّ عدوَّهم خائف منهم؛ وذلك ممّا يزيد المسلمين إقدامًا في محاربتهم؛ إذ ليس سياق الكلام للتّسجيل على المنافقين واليهود قلّة رهبتهم لله، بل إعلام المسلمين بأنّهم أرهبُ لهم من كل أعظم الرّهبات[3].

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 304، 305.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102.

أثر كثافة التّوكيد:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ﴾ مؤكَّدًا باللّام، والجملة الاسميّة الّتي تُفيد الثّبوت والدّوام، وتقديم المسند إليه على الخبر المشتقّ، والتّعبير بالضّمير الّذي هو أعرف المعارف لِما سبق ذكره من الإبلاغ في تطمين المسلمين وتهوين أمر اليهود والمنافقين في نفوسهم، والتّأكيد على أنّهم ليسوا بالبأس ولا بالشّجاعة الّتي تجعلهم مصدرَ قلقٍ للمسلمين؛ لأنَّ الحقيقة والواقع أنّهم يَرهبون المسلمين، ويخافونهم أكثرَ من خوفهم من الله جلَّ في علاه.

اليهود والمنافقون أقلُّ من أن يكونوا مصدر قلق للمؤمنين

دلالة التّعبير بـ ﴿أَشَدُّ﴾:

قولُه: ﴿أَشَدُّ﴾ اسم تفضيل، وهو هنا خبر للضّمير المنفصل، والتّعبير به دالٌّ على أنَّ اليهود والمنافقين يخافون من المسلمين خوفًا عظيمًا لا نظير له، ولا شبيه به، فهم يخافونهم خوفًا أكبر وأقوى من خوفهم من الله، وإسناد اسم التّفضيل إلى ضمير المسلمين المخاطَبين إسناد سببيّ، كأنّه قيل: لرهبتُكم في صدورهم أشدُّ من رهبة الله فيها[1].

المفاضلة في الرّهبة لبيانِ هوان اليهود والمنافقين على أنفسهم

بلاغة التّعبير بمفردة ﴿رَهْبَةً﴾ مادّة وصيغة:

﴿رَهْبَةً﴾ مصدر للفعل (رهب) المبنيّ للمفعول؛ لأنَّ المخاطَبين مرهوب منهم لا راهبون، والمعنى: أنتم أشدُّ مرهوبيّة في صدورهم[2]، وهو تمييز منصوب، وقد جاء استعمال هذا اللّفظ دون رديفاته لدلالته على الخوف الدّائم الّذي لا يفتُر، ولا ينقطع[3]، وهو المناسب لمقام المفاضلة الّذي أفاده لفظ ﴿أَشَدُّ﴾، فالرّهبة من الله ﷻ حاصلة، لكنَّ الرهبة من المؤمنين أشدُّ في صدور الغافلين،

رهبةُ المؤمنين في صدور اليهود والمنافقين راسخةٌ ثابتة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 51.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 241.

فاليهود والمنافقون يرهبون المسلمين على الدّوام، عكس ما يظنُّه المسلمون بهم، ويعتقدونه فيهم، ولو قيل: (لأنتم أشدُّ خوفًا)؛ لفُهم أنَّ ذلك حاصلٌ في وقت معيَّن، وأنَّ خوفَهم من المسلمين لا يدوم أبدًا، وهو ما يُنافي الواقع والحقيقة.

بلاغة التّعبير بحرف الظرفيّة:

التّعبير بحرف الجرّ المفيد للظرفيّة في قوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دالٌّ على تغلغل الرّهبة من المسلمين في صدور اليهود والمنافقين وتمكُّنه منها تمكّن المظروف من الظّرف.

نكتة التّعبير بالصّدور دون القلوب:

الصّدور أنسب بمعنى الاتّساع والانتشار من القلوب

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الصّدور دون القلوب في قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم﴾، والصّدور محلُّ القلوب، أي: إنَّ امتلاءَ الصّدور بالرَّهبة دالٌّ على شدَّة الخشية وعظمتها، وشمولها القلوب والنّفوس وسائر أعضاء البدن، والتّعبير بالصّدور هو الأدقُّ في سياق وصف رهبتهم، باعتبار اتّساع الرّهبة وامتلاء الصّدور منها، فهو تصويرٌ لشديد الرّهبة وأثرها في المجموع.

غرض جمع لفظ الصّدور:

دلالة جمع الصّدور على عدم الاستثناء

جَمْع الصّدور مع إضافته إلى ضمير الجمع دالٌّ على شمول التّعبير جميع الكفّار والمنافقين من غير أن يشذَّ عن تلك الحقيقة أحدٌ من الفريقين، أو يُستثنى منهم واحدٌ.

تعيين مرجع ضمير الجمع:

اليهود والمنافقون هم الرّاهبون بلا استثناء

الضّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ وإلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضّمير إليه مع صلاحيّة الضّمير لكليهما، ولأنَّ

المقصودين بالقتال: هم يهود قريظة وخيبر، وأمّا المنافقون؛ فكانوا أعوانًا لهم[1].

موقع ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ الإعرابيّ ودلالته:

قولُه تعالى: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ جارٌّ ومجرور في محل نصب صفة لـ ﴿رَهْبَةً﴾، وقد أوثر وصف الرّهبة به؛ للإشارة إلى أنَّها رهبةٌ جدٌّ خفيّة، أي: إنَّهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين، ويتطاولون بالشّجاعة؛ ليرهبهم المسلمون، وما هم بتلك المنزلة، فأطْلعَ اللّهُ رسولَه ﷺ على دخيلتهم[2]؛ ليعرف حقيقتهم، ولا يحسب لاجتماعهم ووحدتهم حسابًا، والمعنى: إنَّ رهبتهم منكم في السرِّ أشدُّ مما يظهرونه لكم من رهبة الله، فإنَّهم كانوا يدَّعون أنَّ عندهم رهبةً عظيمةً من الله تعالى[3].

رهبةُ اليهود والمنافقين من المسلمين رهبةٌ جِدٌّ خفيةٍ

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ هي البيانيَّة التفضيليَّة الّتي تبين أنَّ اليهود والمنافقين يرهبون المسلمين رهبة عظيمة، بلغت من قوَّتها أن تكون أعظم في صدورهم من خوفهم من الله تعالى.

الدَّلالة البيانيَّة التَّفضيليَّة

غرض التَّعبير باسم الجلالة:

أوثر التّعبير باسم الجلالة العلم: ﴿ٱللَّهِۚ﴾ مفضَّلًا عليه، للكشف عن حقيقة الرّهبة وبيان مقدارها؛ لأنَّ اللّهَ ﷻ وتعالى قدره هو أعظم ما يُخشى، وأجلُّ مَن يُهاب، والأصل ألّا يُخشى أحد بمثل ما يُخشى به الله، بل لا يُتصوَّر أن يكون هناك من هو أرهب من الله تعالى، فذكر النّظم هذا الاسم المهيب لبيان غفلتهم، وسبب هزيمتهم، فكلُّ من رهب أحدًا أكثر من الله؛ فمآله إلى الانهزام والإخراج.

كلُّ من جعل اللّه أهون من غيره؛ فمآله الهزيمة والرَّذيلة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 103.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

بلاغة المجاز بالحذف:

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ على تقدير مضاف محذوف، تقديره: من رهبة الله، أي: رهبتهم من المؤمنين أشدُّ من رهبة الله تعالى، ونكتة الحذف لتفخيم الموقف، ولتحاشي التّقابل اللفظيّ بين الرّهبتين.

غرابة نظم الآية وتركيبها:

غرابة النَّظم وعجيب تأليفه تُناسب غرابة فعل اليهود والمنافقين

بناءُ الآية تركيبٌ غريبُ النّسج بديعُ الرّصف؛ لأنَّ المألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يُقال: (لرهبتهم منكم في صدورهم أشدُّ من رهبتهم من الله)، فحوِّل عن هذا النّسج إلى النّسج الّذي حَبَكَ عليه في الآية، ليتأتّى الابتداء بضمير المسلمين اهتمامًا به، وليكون متعلّق الرّهبة ذوات المسلمين لتوقّع بطشهم، وليأتي التّمييز المحوّل عن الفاعل لما فيه من خصوصيّة الإجمال مع التّفصيل، وليتأتّى حذف المضاف في تركيب ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ إذ التّقدير: من رهبة الله؛ لأنَّ حذفه لا يحسن إلّا إذا كان موقعه متّصلًا بلفظ ﴿رَهْبَةً﴾؛ إذ لا يحسن أن يُقال: لرهبتهم أشدُّ من الله[1].

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

عند وقوع العجب يُسأل عن السّبب

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ مفصولةً عما قبلها؛ لأنَّها تبيِّن السّبب في كون اليهود والمنافقين يرهبون المسلمين أشدَّ من رهبتهم لله، ومن ثمّ فصلت عنها، كما يفصل السَّبب عن المسبَّب، فهي على تقدير سؤالِ سائلٍ: لماذا وقع منهم ذلك؟ فيأتي الجوابُ بيانًا لسبب اشتداد الرّهبة في صدورهم؛ فيما يعرف بشبه كمال الاتّصال.

مرجع اسم الإشارة وبلاغته:

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة راجعٌ إلى ما ذُكر من كون رهبتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 103.

منكم أشدَّ من رهبة الله[1]، والتّعبير به - مع كونه مختصًّا بالبعيد - دالٌّ على بلوغ المُشار إليه في الغرابة والعجب مبلغًا عظيمًا[2]، بإنزال ما فيه من بُعْدٍ معنويٍّ منزلةَ البُعْدِ الحسّي، والمعنى: ذلك الأمر الغريب، وهو خوفهم الثّابت من مخلوق مثلهم ضعيف، يزيّنه لهم عدمُ خوفهم من الخالق على ما له من العظمة في ذاته، وكونه غنيًّا عنهم[3]، فحمل اسم الإشارة معنى البُعد المضمَّن معنى التّعجب من شعورِهم المنبئ عن غفلةٍ لا يقع فيها إلّا من فقد تعاليم الكتاب الّذي ينتمي إليه اليهود.

مـن تـخـلّى عن تعاليم التَّوراةِ؛ تشرذم في جُبِّ الـرَّهـب وبـئر الرُّعب

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾؛ لبيان السَّبب الّذي جعلهم على النّحو السّابق ذكره، وهو خشيتهم المخلوق أكثر من خشيتهم لله تعالى، والمعنى: سبب ذلك المذكور هو انتفاء فقاهتهم[4].

دلالة التَّوكيد في جملة الفاصلة:

جاء قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ مؤكَّدًا بأنَّ والجملة الاسميّة، والتّعبير بالضَّمير العائد إلى اليهود والمنافقين دون غيرهم؛ للمبالغة في تأكيد أنَّ السّبب الّذي جعل اليهود والمنافقين يخشون المسلمين - مع أنَّهم خلقٌ من خلق الله تعالى - أشدَّ من خشيتهم للخالق ﷻ هو انعدام فقههم، وعدم إدراكهم جلالَ الله تعالى وعظمته حتّى يخشوه حقَّ خشيته[5]؛ لأنَّهم كالحيوانات لا نظرَ لهم إلى الغيب إنَّما هم مع المحسوسات[6].

شـدَّةُ الـرَّهـبـة تدلُّ على انعدام الفقه في النَّظر للمحسوسات أكـثر مـن الغيبيّات

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(5) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

بلاغة ذكر لفظ ﴿قَوْمٌ﴾، ودلالة تنكيره:

قيامُ اليهود والمنافقين على انعدام فقه الغيبِ سببُ خيبتهم

آثر النّظم الكريم ذكر لفظ ﴿قَوْمٌ﴾ دون أن يكتفي بأن يُقال: (ذلك بأنَّهم لا يفقهون)؛ وذلك لِما يؤذن به من أنَّ عدمَ فقه أنفسهم أمرٌ عُرفوا به جميعًا، وصار من مقوِّمات قوميّتهم لا يخلو عنه أحدٌ منهم[1]، وتنكيره دالٌّ على تحقير شأنهم والتَّقليل من قدرهم، والإشارة إلى أنَّ عدمَ الفهم سمةٌ عامَّةٌ فيهم، غالبةٌ عليهم، من غير شذوذِ أحدٍ، أو استثناءٍ للأبد.

فائدة النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

قولُه: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ جملة في محلّ رفع صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾، و﴿لَا﴾ فيها حرف نفي يدلُّ على انتفاء علم اليهود والمنافقين وفهمهم قَدْرَ اللّه وجلالَه نفيًا قاطعًا لا حدود له، ولا احتمالَ لحصوله بأيِّ مقدار.

فائدة نفي الفقه:

الفقه رأسُ النّجاة القلبيَّة وسرّ المكنة الإيمانيّة

آثر النّظم الكريم نفي الفقه عن الرّاهبين من اليهود والمنافقين، دون نفي الإيمان أو العقل ونحوه، وذلك أنَّ الفقه هو فهمُ المعاني الخفيّة[2]، أو هو العلم بمفهوم الكلام ظاهرِه الجليِّ وغامضِه الخفيِّ بسرعة فطنةٍ وجودة قريحةٍ[3]، فنفيه في قوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ انعدامَ الفقه طريقٌ إلى انتفاء الإيمان، وسبب فيه، فالفقه أو الفهم عاملٌ رئيسٌ في تمكُّن الإيمان من القلوب وتغلغله فيها؛ فلمّا غاب الفقه؛ حضر الخوف، ورأس الفقه توكيل الأمر للّه تعالى، والإيمان به كما أمر.

نكتة التّعبير بصيغة الفعل المضارع:

جيء بفعل الفقه المنفيِّ مضارعًا، فقيل: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ للدَّلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

على أنَّ جهلَ اليهود والمنافقين صفةٌ متجدّدةٌ فيهم، وليست خاصّةً بوقت من الأوقات أو موقف من المواقف، والمعنى: لا يتجدَّد لهم؛ بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم في وقت من الأوقات فَهُمٌ يشرح صدورهم؛ ليدركوا به أنَّ الله تعالى هو الّذي ينبغي أن يُخشى لا غيره[1]، فدلَّ عدمُ الفقه على اعتماد المكر والخديعة، وهو سرُّ الخذلان الّذي هم فيه؛ لما فيه من الاغترار بالنّفس، ومخادعة الآخرين، فلمّا ثبتت لهم صفة الاغترار والمخادعة؛ دام لهم انعدام الفقه، فالنَّتيجة تدور مع سببها وجودًا وعدمًا.

اغترارُ اليهود والمنافقين ومخادعتهم سببُ انعدامِ فقههم

نكتة حذف متعلّق ﴿يَفْقَهُونَ﴾:

حُذِف متعلِّق فعل الفقه في قوله تعالى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ ليفيد حذفُه عمومَ النّفي وشمولَه كلَّ شيء يساعد اليهود والمنافقين في إدراك عظمة الله تعالى، ويجعل خشيتهم له أعظمَ من خشيتهم لغيره من الخلق، مهما كانت قوَّتُه ومهما كان بأسُه، والمعنى: لا يفقهون شيئًا حتّى يعلموا عظمةَ الله سبحانه، فيخشوه حقَّ خشيتِه[2]، أو لتنزيل فعل الفقه المتعدّي منزلة الفعل اللّازم، فهُم لا يفقهون في سلوكهم وتفكيرهم ومشاعرهم، فانعدامُ الفقه وصفٌ لازمٌ لهم.

عدمُ الفقه وصفٌ لازمٌ لليهود والمنافقين

علة فصل جملة: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾:

جاءت جملة: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ مفصولة؛ لأنَّها بدل اشتمال ممّا قبلها؛ إذ إنَّ شدّة الرّهبة من المسلمين تشتمل على شدَّة التحصُّن لقتالهم، والمعنى: لا يقدرون على قتالكم إلّا في هاته الأحوال[3]، وذلك فيما يعرف بكمال الاتِّصال، الّذي تنزل فيه الجملةُ المفصولةُ ممّا قبلها منزلةَ التّابعِ من المتبوع.

شدَّة الاحتياطِ عند القتال بيانٌ لعظيم الرّهبة في سائر الأحوال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.

بلاغة القصر بطريق النَّفي والاستثناء:

بيان واقع جبن اليهودِ في القتال ممّا قد لا يخطر على قلب مؤمن

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، قُصِر فيه قتالُ اليهود والمنافقين للمسلمين على كونه في قرى محصَّنة أو من وراء جُدُر، قصرَ موصوف على صفة قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا بطريق النَّفي والاستثناء، والمعنى: لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين متساندين إلّا كائنين في قرًى محصّنةٍ بالخنادق والدّروب، أو من وراء جدر، دون أن يصْحَروا لكم، ويبارزوكم[1]، وقد أوثر النّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لأنَّه يمتاز عن غيره بكونه يُستعمَل للأمر الّذي يُنكره المخاطَبُ، أو يشكُّ فيه[2]، كما هو حال المؤمنين؛ إذ كانوا يعتقدون أنَّ اتحادَ اليهود والمنافقين سيجعلهم ذوي قوَّة وبأس يستطيعون بهما أن يواجهوا المسلمين، ويبرزوا أمامهم في معارك قويّةٍ مُرْهِقةٍ، فجاء القصر؛ لينفي قتالهم مجتمعين مطلقًا، ويثبت كونه في الحصون أو من وراء الجدر فقط، ما من شأنه أن يزيد المسلمين اطمئنانًا وتأكُّدًا من ضعف أعدائهم وتفرُّقهم، وثقة وفخرًا بما هم فيه مِن ترابطٍ وأخوَّةٍ وإيثارٍ.

بلاغة إثبات المقاتَلَة مع نفيها:

التهكُّم باليهود والمنافقين فمقاتلتهم عند التَّحقيق ليست مقاتلة

جاء التّعبير عن القتال بصيغة المفاعلة، في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، مع أنَّ السّياق ينفي إقدامَ اليهود والمنافقين على قتال المسلمين أو مواجهتهم في معركة بشكل مباشر، وذلك جَرْيًا على اعتقادهم أنَّهم يُقاتلون حين يُدافعون، أو تغليبًا لقتالِ المسلمين لهم واضطرارهم؛ للدِّفاع عن أنفسِهم في القرى المحصَّنة، أو مِنْ وراء الجُدُر، أو للتَّهكُّم بهم؛ إذ أثبت لهم المقاتلة في القرى المحصَّنة أو من وراء جدر، وهذه على التَّحقيق ليست مقاتلة، تهكُّمًا بهم، وبيانًا لشديد جبنهم.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 332.

دلالة لفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

قتال اليهود والمنافقين هو قتالُ دفاعٍ لا قتال جيوش متحالفة

قولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضَّمير المرفوع في ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، يجوز أن يكون بمعنى: كلّهم فيكون للشُّمول، أي: لا يقاتلكم اليهودُ والمنافقون كلُّهم إلّا في قرى محصَّنة، ويجوز أن يكون بمعنى: مجتمعين، أي: لا يقاتلونكم جيوشًا كشأن جيوش المتحالفين، فإنّ ذلك قتالُ مَن لا يقبعون في قراهم، فيكون النَّفي منصبًّا إلى هذا القيد، أي: لا يجتمعون على قتالكم اجتماع الجيوش، أي: لا يهاجمونكم، ولكن يقاتلون قتالَ دفاعٍ في قراهم[1].

نوع الاستثناء ودلالته:

أطلعَ اللهُ المؤمنين على دخائل الأعداء؛ تطمينًا لهم وتثبيتًا

إذا كان ﴿جَمِيعًا﴾ بمعنى: كلهم، فالاستثناء حقيقيٌّ من عموم الأحوال، أي: لا يقاتلونكم كلُّهم في حال من الأحوال، إلّا في حال الكون في قرى مُحَصَّنة، وإذا كان النَّفي مُنْصَبًّا على قيد الاجتماع، فالاستثناء منقطعٌ؛ لأنَّ القتال في القرى ووراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين، وعلى كلا الاحتمالين فالكلام يفيد أنَّهم لا يُقاتلون إلّا متفرّقين، كلُّ فريق في قريتهم، وإلّا خائفين متترِّسين، والمعنى: لا يهاجمونكم، وإنْ هاجمتموهم لا يبرزون إليكم، ولكنَّهم يدافعونكم في قرى محصَّنة، أو يقاتلونكم من وراء جدر، أي: في الحصون والمعاقل ومن وراء الأسوار، وهذا كنايةٌ عن مصيرهم إلى الهزيمة؛ فما حورِب قومٌ في عقر دارهم إلّا ذلّوا، وهذا إطْلاعٌ لهم على دخائل الأعداء؛ تطمينًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين معه[2].

بلاغة التَّعبير بحرف الظرفيَّة:

القتال في القرى المحصَّنة استراتيجيَّة قتال لا تكتيك حرب

التَّعبير بحرف الظرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ دالٌّ على أنَّ اليهود لا يقدرون على مواجهة المسلمين مواجهةً مباشرة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 105.

أو في أماكن مفتوحة، إنَّما مواجهتهم معهم تكون من داخل دروع وأسوار وخنادق تحيط بهم إحاطة الظّرف بالمظروف، وهو دليل على ضعفهم وسرعة تسرُّب الرُّعب الّذي يقذفه اللّهُ تعالى في قلوبهم؛ إذ التَّغلغل في القرى الموصوفة بأنَّها محصّنة، ليس إخبارًا عن واقع عسكريٍّ، أو سلوك احتياطيّ، بل هو استراتيجيَّة ناشئة عن أخلاقٍ مجتمعيَّة، وسلوك مرتبط بنظرة الإنسان للحياة، ومدى تشبُّثه بها.

نكتة جمع لفظ ﴿قُرَى﴾:

جمع لفظ ﴿قُرَى﴾؛ للدَّلالة على ما سبق ذكره من أنَّهم لا يواجهون المسلمين مواجهةَ الجيوش النّظاميّة الموحَّدة المتحالفة، ولكنّهم يقاتلونهم قابعين في قُراهم، داخل أسوار كلِّ قرية؛ لأنَّهم - فيما بينهم - ليسوا بالوحدة ولا بالاجتماع الّذي يظنّه المسلمون، على ما سيأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، فجمع القرى لبيان أمرين، الاجتماع في داخل القرى هروبًا من الموت، والفرقة الّتي بينهم الّتي جعلتهم في قرى محصّنة، كلٌّ منهم حريص على أن ينجو بنفسه.

اليهود مفرَّقين في قراهم اتِّساقًا مع طبيعتهم الّتي تَرْهَب المواجهة

نكتة تنكير لفظ ﴿قُرَى﴾:

نُكِّر لفظ ﴿قُرَى﴾؛ للدَّلالةِ على العموم والشّمول، أي: إنَّهم يقومون بتحصين كلِّ قُراهم؛ اتِّساقًا مع طبيعتهم الّتي تَرْهَب المواجهة، وتتَّسم بالخوف من المخلوق أكثر من خوفها من الخالق، ولو قيل: (القرى المحصّنة)؛ لفُهم أنَّهم يفعلون ذلك احترافًا واحتياطًا، ويظهر أنَّ تحصين قراهم كان بعد سماعهم بالخطر الماحق، فحصَّنوا قراهم، بقطع النّظر عن أي اعتبار آخر.

تحصينُ القرى عامٌّ فيها كلِّها، وليس لبعضها دون بعضها الآخر

غرض وصف القرى بأنَّها ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾:

وُصِفَت القرى بأنَّها ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾؛ لتأكيد جُبن اليهود وتقوية خوفهم من المسلمين، ببيان أنَّهم يعمدون عند القتال أو الدّفاع إلى المباني

والدّروب والخنادق الّتي أعدّوها مسبقًا، والّتي يكثرون منها حول قراهم وفي مدنهم؛ ليحتموا بها من سيوف المسلمين وأسلحتهم، ويمكن أن يكون لجوؤهم إليها واحتماؤهم فيها نوعًا من التربُّص وانتظار مَنْ تكون له العاقبة[1].

تحصين اليهود لقراهم هروبٌ من القتال لا استعداد له

نوع ﴿أَوْ﴾ ودلالته:

﴿أَوْ﴾ حرف عطف يفيد التَّقسيم أو التَّنويع، ويمكن أن يكون هنا لِمُطلق الجمع[2] ما يعني: أنَّ اليهودَ لا يختارون من وسائل القتال والدّفاع إلّا الحصونَ والجدرَ وما كان على شاكلتهما في تحقيق الحماية والاستتار، والحيلولة بينهم وبين المسلمين؛ لئلّا يظهروا لهم، ولا يبرزوا أمامهم؛ تأكيدًا لجبنهم، وتقوية لشدَّة خوفهم وخورهم، وسرعة انهيارهم.

ينحصر قتال اليهود في القرى المحصَّنة ومن وراء الجُدُر

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف ﴿مِن﴾، فلم يقل: (إلّا في قرى محصّنة أو وراء جدر)، فقال: ﴿مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾؛ وذلك للتَّأكيد على أنَّهم لا يبرحون وراء الجدران، ولا يخرجون خارج الحصون، ولا يبتعدون عنهما، أو عمّا كان على شاكلتهما، إنَّما يظلّون فيها أو خلفها يقاتلون، ويدافعون، ويفعلون ما يعتقدون أنَّه حرب وقتال، دون أن يصْحَروا للمسلمين، ويبارزوهم لفرط رهبتهم منهم[3]، ومَن فعل غير ذلك منهم؛ فعله بصورة فرديّة، وعن غير اجتماع[4]، فإنَّ قتال اليهود يبدأ من وراء الجدر، ليحتمي بها عن السّهام والرّماح، فدلَّ الحرف على أنّهم لا يبتعدون عن الجدر، بل يبقون ابتداءً من ورائها ثابتين؛ كي لا يصيبهم أذًى أو مكروه.

دلَّ حرف (من) على أنَّ اليهود لم يتجاوزوا الجدر، وبقوا خلفها

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 9/ 596.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 88.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450، 451.

بلاغة استعمال ﴿وَرَآءِ﴾:

كلمة (وراء) تقال باعتبار الّذي في الجانب الآخر، فتشمل كلَّ الجوانب والاتجاهات

آثر النّظمُ التّعبيرَ بكلمة ﴿وَرَآءِ﴾، دون (خلف) في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾؛ لشموليَّة التَّعبير بها كلَّ الاتجاهات، ما يعني: أنَّ اليهود يكونون أحيانًا خلف الجُدارن، وأحيانًا أمامها، وأحيانًا بجانبها، وأحيانًا تحيط بهم الجُدران من جميع الجوانب، فكلمة: ﴿وَرَآءِ﴾ تقال في أيِّ جانب من الجدار، فهو وراءَهُ باعتبار الّذي في الجانب الآخر[1]، ولو قيل: (خلف)؛ لدلَّ ذلك على أنَّهم لا يقاتلون إلّا من اتِّجاه واحد، وهو ما يجعلهم عرضة؛ لأن ينكشفوا لأعدائهم، وهذا مخالف؛ لما دَرَجوا عليه في الحروب الّتي يخوضونها، فهم يجعلون الجدر حاميةً لهم، وهم يلزمونها بحيث تكون أمامهم، وهم وراءها لتحميهم، ولا تكشفهم للمؤمنين.

علَّة فصل جملة: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾:

التّفكّك المجتمعيّ والتّمزق الدينيّ سببُ الحماية الشّديدة

جاءت جملة: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ مفصولة عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال، الّذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال أثارته الجملةُ السّابقةُ في نفوس المتلقّين، حول السّبب الّذي جعل اليهود لا يقاتلون المسلمين قتال الجيوش المتساندة، مع أنَّهم متفقون على عداوتهم. فيُجاب بأنَّ بينهم بأسًا شديدًا وتدابرًا، فهم لا يتّفقون[2]، ولو قاتلوا مجتمعين في جيش واحدٍ؛ لوقع الاختلاف فيما بينهم، لحرصهم على الحياة، ورمي كلٍّ فريق منهم البقيّة في نار القتل، ومن ثم فُصِلت عمّا قبلها، كما يُفصَل الجوابُ عن السّؤال.

فائدة استعمال مفردة ﴿بَأْسُهُم﴾:

البأس ثابتٌ لليهودِ لكنَّه داخليٌّ يزعزعهم ولا يُقوّيهم

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿بَأْسُهُم﴾ الدالّ على الشدَّةِ والقوَّة دون (خلافهم)؛ لدفع ما يمكن قولُه: من أنّ اليهود

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (ورى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.

والمنافقين يقاتلون المسلمين متحصّنين أو من وراء الجدر عن عجز لازم لهم[1]، فالتّعبير بالبأسِ لإثبات أنّهم ذوو بأس، لكنّه لا يظهر في مواجهة المسلمين، بل يظهر البأس الشّديد بينهم؛ لأنَّ الله تعالى قذف في قلوبهم الرّعب منهم، والمعنى: إنَّ البأسَ الشّديدَ الّذي يوصفون به إنَّما هو بينهم؛ إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبقَ لهم ذلك البأس والشدَّة؛ لأنَّ الشُّجاع يجبُن، والعزيز يذلُّ عند محاربة الله ورسوله[2].

دلالة إضافة (بأس) إلى الضّمير:

القصد إلى الخصوصية بدلالة الإضافة

إضافة (بأس) إلى ضمير اليهود في قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم﴾ تؤذن بأنَّ لهم بأسًا خاصًّا بهم، وشدَّة يعرفونها عن بعضهم، لكنَّهم لا يستعملونها إلّا فيما بينهم.

بلاغة التّعبير بالظّرف:

حصر البأس داخل نطاق اليهود والمنافقين

قولُه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ ﴿شَدِيدٌ﴾، وفي التَّعبير به دلالة على أنَّ مجال البأس في محيطهم، وأنَّ ما فيه من إضرار منعكسٌ عليهم، فالبأسُ منحصرٌ بينهم لا يتجاوزهم.

نكتة تقديم الظَّرف على الخبر:

الاهتمام ببيان واقع بأس اليهود المتغلغل فيهم

قُدِّم ذكر الظَّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على الخبر ﴿شَدِيدٌ﴾، فلم يقل: (بأسهم شديد بينهم)؛ للاهتمام ببيان أنَّه بينهم، فهو متغلغل في علاقاتهم الدّاخليّة، أي: متسلِّطٌ من بعضهم على بعضهم الآخر، وليس على المسلمين، تهكُّمًا بهم، واستهزاءً وسخريّةً منهم[3]، وبيانًا لعظيم فضل الله على عباده المؤمنين، "بأن ما ينظرونه من شدَّتهم وشجاعتهم؛ إذا حاربوا المشركين لا يُنكر عند محاربة المؤمنين،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 451.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.

كرامة أكرم الله ﷻ بها المؤمنين، تتضمَّن علمًا من أعلام النبوَّة؛ تقوية لإيمانهم، وإعلاء لشأنهم"[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿شَدِيدٌ﴾:

شـدَّة اليهود قويّة مستحكمةٌ لا للوئام بل للخصام

أوثر الإخبار عن بأس اليهود بأنَّه ﴿شَدِيدٌ﴾ بصيغة فعيل؛ للدَّلالة على أنّهم يبالغون في استعمال قوّتهم فيما بينهم، وأنَّها تبلغ غايتها وأقصاها على بعضهم، وذلك على عكس ما وصَف اللّهُ به المؤمنين في هذه السّورة، وعلى عكس ما وصفهُم به في قولِه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]، والشَّديد هو المتماسك بقوَّة، الآخذ من جميعِ الأطراف، فبأس اليهود قد عمَّهم، وأثَّر على جميعهم، وذلك لدلالة لفظ الشدَّة على القوّة الجامعة للأطراف المتفرّقة، فكأنّ البأس يشدُّ بعضهم إلى بعض، لكن لا للوئام بل للخصام.

علَّة فصْل جملة: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾:

خبرُ القرآنِ يقومُ على تعليل الظّواهر غير الواضحة

جاءت جملة: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤالٍ أثارته الجملةُ الأولى في نفس المتلقّي، تقديره: كيف ذلك، ونحن نراهم متَّفقين؟ فأجيب بأنَّ ظاهر حالهم اجتماعٌ واتحادٌ، وهم في بواطنهم مشتّتون مختلفون، فآراؤهم غير متَّفقة ولا ألفة بينهم؛ لأنَّ بينهم عداوات وإحنًا، فلا يتعاضدون[2].

تعيين مرجع الضّمير في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾:

الخطابُ لكلِّ من يحسب اليهود على خلاف واقعهم

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾، قيل: إنَّ المقصودَ به رسول الله ﷺ ومن ينهج نهجه، وضمير الغائب فيه يرجع إلى اليهود والمنافقين، والمعنى: تحْسَبُ اليهودَ والمنافقين - يا أعلى الخلق، ويا أيُّها النّاظر - متّفقين، والحال أنَّ قلوبهم متفرِّقة، ومنازعهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 451.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.

مختلفة، وبواطنهم تباين ظواهرهم[1]، وقيل: الخطابُ لغير معيَّن؛ لأنَّ النبيّ ﷺ لا يحسب ذلك، وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم[2].

نكتة التّعبير بالمضارع: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾:

تصوير حال اليهود عند النّظر إليهم

أوثر التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾؛ لما يدلُّ عليه من تصوير حال حسبان اليهود مجتمعين، فالفعل المضارع بيانٌ للحالة الّتي عليها الظّانُّ حين النّظر في واقع اليهود.

بلاغة التّعبير بـ ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾:

براعةُ اليهود في إيهام النّاظرين يكشفها الوحي الأمين

ناسب استعمال مفردة ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ دون: (تظنهم) أو (تراهم) للفظ ﴿جَمِيعًا﴾، فالحسبان متعلِّق بما يُحسب، فإنَّ النّاظر إذا نظر إليهم، وتفحَّصهم؛ فسيعتقد أنَّهم متماسكون، ففيه إشارة إلى أنَّهم خبراءُ بارعون في الظُّهور متماسكون مترابطون أمام الآخرين، حتّى يصل الرّائي لهم - بناءً على ما يراه أمامه من مظاهر خادعة، وطقوسٍ زائفة، وحساباتٍ ظاهريّة - إلى اقتناع يصل إلى درجة اليقين، ولا يتطرَّق إليه شكٌّ في وحدتهم وتماسكهم، وذلك بخلاف فعل (الظّن) الّذي يحتمل الشَّكَّ، ولا تصل الثِّقةُ فيه أقصاها[3].

دلالة التّعبير بـ ﴿جَمِيعًا﴾:

ظاهر اليهود يوهم بلوغهم أقصى درجات الوحدة والاجتماع

قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ مفعول ثانٍ لفعل الحسبان، والتَّعبير به دالٌّ على وصولهم في الوحدة والاتِّفاق والاجتماع أقصى الدّرجات وأعلاها، وبلوغهم في ذلك الصّورة المثلى، والنُّموذج الأعلى الّذي يطمح الرّائي لهم في موطن من المواطن إلى تحقُّقه في كلِّ التّجمُّعات، والمعنى: تحسبهم مجتمعين متّفقين في موطن من المواطن[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 99.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

بلاغة واو الحال:

الضدُّ الدّلاليّ الّذي تُعطيه جملة الحال تصويبٌ للنّظر

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حاليّة تدلُّ على أنَّ صفة اليهود والمنافقين الثّابتة، وحالهم الدّائمة الّتي لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر أنَّهم متفرِّقون متناحرون، لا تجتمع قلوبهم، وليس بينهم من دلائل الألفة والمحبَّة شيء ممّا يظهرون، أو يتظاهرون، ففي الوقت الّذي ينظر فيه النّاظر، فيظنّ اليهود جميعًا، فإنَّ الحالَ أنَّ قلوبَهم شتَّى، فدلَّت جملة الحال على الضدِّ ممّا يحسبه النّاظر، فهي تحمل معنى التَّصويب والتّعديل لظنِّ النّاظر إليهم.

وجه التّعبير بالجملة الاسميّة:

تفرُّق القلوبِ يصدّع الأبدان، ويهزُّ الأركان

أوثر التَّعبير عن حال اليهود والمنافقين بالجملة الاسميَّة، فقيل: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ لما تمتاز به من إفادة الثُّبوت والدَّوام، ما يعني: أنَّ حقيقة أمرهم أنَّهم مشتَّتون متناحرون بصفة دائمة، وأن الاجتماع والوحدة لم يثبت عنهم في موقف من المواقف، وإن بدا للرّائي والنّاظر أنَّهم على الضدِّ من ذلك، والغرض من التَّعبير بها: تجسير المؤمنين وتشجيع قلوبهم على قتال قوم لا يعقلون أنَّ تشتُّت القلوب ممّا يوهن قواهم، ويعين على أرواحهم[1].

نكتة التّعبير بالـ(قُلوب) جمعًا مضافًا إلى الضّمير:

تنافرُ القلوب أصلُ تنافر العقول والأبدان

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة القلوب في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ دون رديفاتها؛ جريًا على العادة في التَّعبير بلفظ (القلوب) في كلِّ ما يتّصل بالمشاعر والعواطف، ولما للقلب من أثر موجِّهٍ للعقل قبولًا ورفضًا، اتِّفاقًا واختلافًا، وفيه دلالة على أنَّ تنافرَ القلوب عاملٌ رئيس في تنافر العقول والأبدان، وأنَّ اجتماعَ النّفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصلُ كلِّ فساد، وموجب كلِّ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

تخاذل، ومقتضٍ لتجاسر العدوِّ، واتِّفاق القلوب والاشتراك في الهمَّة والتّساوي في القصد يوجبُ كلَّ ظفر وكلَّ سعادة[1]، وجيء به جمعًا مضافًا إلى ضمير الفريقين، فقيل: (قُلوبُهُم)؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الحال تشمل الفريقين جميعًا من غير شذوذ ولا استثناء.

بلاغة التَّعبير بلفظ ﴿شَتَّىٰ﴾:

الشَّتات افتراقٌ مع ضياع الأهداف وافتراق الغايات

قوله: ﴿شَتَّىٰ﴾ خبر المبتدأ في جملة الحال، أوثر التَّعبير به دون: (متفرّقة)؛ لدلالته على الاختلاف الّذي لا يقبل الاحتمال أو التَّأويل، فلفظ ﴿شَتَّىٰ﴾ نص في الاختلاف المذموم، كما أنَّ ﴿شَتَّىٰ﴾ تدلُّ على شتات الجميع دون وجود هادفٍ واضحٍ لهم، ففراقهم لا أمل معه في العودة والرّجوع إلى الألفة بأيّ شكل من الأشكال، والمعنى: متفرِّقة أشدَّ افتراق، وعن ذلك نشأت الرّهبة، وموجب هذا الشّتات اختلاف الأهواء الّتي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم، وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحقِّ كاجتماع البهائم في الهرب من الذِّئب[2]، وهو ما يُؤكِّد أنَّ بينهم إحنًا وعداواتٍ تدوم، ولا تنتهي، فلا يتعاضدون حقَّ التَّعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة[3].

علَّة فصل جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾:

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها تبيِّن السَّبب في تفرُّق اليهود والمنافقين وتشتُّتهم، ومن ثمَّ فُصِلت عن سابقتها، كما يُفصَل السَّببُ عن المسبَّب.

تعيين مرجع اسم الإشارة ودلالته:

بلغ اليهود فيما بينهم مبلغًا عظيمًا في الفرقة والاختلاف

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكِر من أنَّ بأسهم بينهم، ومن تشتُّت قلوبهم، أي: ذلك مُسبَّب على عدم عقلهم؛ إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد، والتشفّي بين أفرادهم، وأهملوا النّظر في عواقب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

الأمور واتّباع المصالح، فأضاعوا قومهم[1]، ونكتة التّعبير به الإشارة إلى أنَّهم بلغوا في الفرقة والشّتات مبلغًا عظيمًا، بإنزال ما فيه من البعد المعنويّ منزلة البعد الحسيّ، المفضي إلى ذمّ ما هم فيه من فرقة وتشتُّت، وتحذير المسلمين من الوقوع فيه، والانزلاق إليه.

نكتة ذكر لفظ ﴿قَوۡمٌ﴾:

ضعفُ العقل وضياع الحكمة من سمات قوميَّة اليهود

آثر النّظم الكريم ذكر لفظ ﴿قَوۡمٌ﴾ دون حذفه، فلم يقل: (ذلك بأنَّهم لا يعقلون)؛ لِما يؤذن به من أنَّ تشتُّت قلوبهم ناتجٌ عن سمةٍ متأصِّلةٍ فيهم يتوارثُها قومُهم جيلًا عن جيل، كأنَّها من المقوّمات المقوِّمة لقوميَّتهم، وهي ضعف عقولهم حتى إنَّها صارت كالمعدومة[2]، وتنكيرُه دالٌّ على تحقير شأنهم، والتّقليل من قدرهم، والإشارة إلى أنَّ ضعفَ العقول سمةٌ عامّةٌ فيهم، غالبةٌ عليهم.

فائدة النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

القصد إلى وصف القوم بعدم إدراك الخير

قولُه: ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ جملة في محلّ رفع صفة لـ ﴿قَوۡمٌ﴾، و﴿لَّا﴾ فيها حرف نفي يدلُّ على نفي تعقُّلهم في كلِّ ما من شأنه أن يقودَهم إلى الخير في عاجلتهم وآجلهم.

فائدة نفي العقل دون إثبات الجهل:

نفيُ العقلِ أعمُّ وأشملُ، وأدخلُ في الذمِّ من إثباتِ الجهلِ المحتملِ لعدمِ المعرفةِ

أوثر نفي العقل في قولِه تعالى: ﴿قَوۡمٌ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾، ولم يقل: (قوم يجهلون)؛ لأنَّ نفي العقل أعمُّ وأشملُ، وأدخل في الذَّمِّ والتّحقير الّذي يقصد إليه البيان من إثبات الجهل، كما أنَّ إثبات الجهل قد يُظنُّ منه الجهل الّذي هو بمعنى عدم المعرفة، والمقصود إثبات عدم العقل بإرادة صاحبه؛ إذ من الممكن عند إثبات الجهل أن ينصرف الذِّهن إلى أنَّهم يجهلون أهميّة الوحدة والاجتماع، وخطورة الفرقة والتشتُّت فقط، لكنَّهم يعقلون أشياء أخرى كثيرة، فكان نفي العلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

تحاشيًا لذلك الفهم، وتأكيدًا لأنَّهم لا دينَ يجمعهم، لعلمهم أنَّهم على الباطل فهم أسرى الأهويَةِ، والأهويَةُ في غاية الاختلاف، فالعقل مدار الاجتماع، كما كان الصّحابة رضوان الله عليهم أجمعين في زمن النبيِّ ﷺ، كما أنَّ الهوى مدار الاختلاف[1].

بلاغة التَّعبير بالفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

التّعبير بالفعل: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ منفيًّا دالٌّ على أنّ اليهود لا يعقلون، كما ينبغي؛ لأنَّهم لو عقلوا؛ لعلموا أنَّ السّلامة في اجتماعهم عند الخطر، وفي لقائهم له كيانًا واحدًا، وأنَّ تفرُّقَهم هو الّذي يجعل يد الخطر مبسوطةً عليهم متمكِّنةً منهم جميعًا، فهُم في هذا الفراق الّذي يطلب به كلُّ واحد منهم السّلامة لنفسه، إنَّما يردون به موارد الهلكة جميعًا، ولهذا جاء وصفهم هنا ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾؛ إذ يكون العقل - مجرَّد العقل - كافيًا في تقدير السّلامة من الخطر، وأنَّ السَّلامة رهن بالاجتماع لا بالتفرُّق، حتّى إنَّ بعض الحيوانات لتهتدي إلى هذا بغريزتها، فإذا واجهها خطر؛ واجهته جبهة واحدة، لم يفرَّ منها أحد[2].

وجـودُ العـقـلِ كـافٍ في إدراك خـطـورة الفرقة والتشتُّت

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

جيء بفعل العقل المنفيّ مضارعًا ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنّ تعطيل العقل وعدم العمل بمقتضاه من الصّفات المتجدِّدة في اليهود والمنافقين، ما داوموا بعيدين عن الخضوع لدين الله تعالى.

دلالـة المـضـارع على دوام عدم العمل بالعقل لـدى الـيـهـود والمنافقين

نكتة حذف متعلّق ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

حذف متعلّق فعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ ليعمَّ النَّفي كلَّ ما مِن شأنه أن يجعلَهم يدركون خطورة الفرقة والتشتُّت، وتحكيم الأهواء، وتقديم الخوف من الناس على الخوف من الله، والمعنى: لا يعقلون شيئًا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452، 453.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 872، 873.

حتّى يعرفوا الحقَّ، ويتبعوه، وتطمئنَّ به قلوبهم، وتتَّحد كلمتهم، ويرموا عن قوس واحدة، فيقعون في تيه الضّلال، وتتشتَّت قلوبهم حسب تشتُّت طرقه، وتفرُّق فنونه[1]، وإمّا لتنزيل فعل يعقلون المتعدّي منزلة اللّازم، فيوصفوا بأنَّهم غير عاقلين في سلوكهم، كما تصف شخصًا بأنَّه عاقلٌ، بقطع النَّظر عن كونه عاقلًا لأيِّ شيء.

انعدامُ العقل هو العقل الموصل للهدايةِ والمبلغ لدرجات الحكمة

توجيه المتشابه اللفظيّ بين نفي العقل ونفي الفقه:

أوثر هنا ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾، وفي الآية الّتي قبلها ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنَّ معرفة مآل التشتُّت في الرَّأي، وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفتِّ في ساعد الأمَّة مَعْرِفَةٌ مشهورةٌ بين العقلاء، ولأنَّ إدراك خطورة الفرقة والتشتُّت ممّا يحتاج إلى عقل يقظ، بينما الخوف من الله تعالى وخشيته أكثر من خلقه لا يحتاج إلى عقل - مجرَّد عقل - بل لا بدَّ من عقل معه فقهٌ وعلمٌ[2].

إدراكُ خطر الفرقة يحتاج إلى عقل، وخشيةُ الله تحتاج إلى فقه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدر والقلب:

الصَّدْر مُقَدَّمُ جسمِ الشَّيء أو أعلاه، الَّذي يَبْدأ منه أضْخَمُه، كصدر الإنسان، وصدر السَّهم، وصدر الوادي، ومن ذلك قالوا: صَدْرُ كلِّ شيء: أوَّلُه، ويأتي بعده سائره[3]، والقَلْبُ خالِص كُلِّ شَيءٍ وشَريفه[4]، وهو باطنُ الشَّيء ولُبُّه، ومنه المُضغة المعروفة؛ لأنَّها أهمُّ ما في الباطن وأقواه[5]، قال بعض العلماءِ: حيثما ذكر اللّهُ (القلب)؛ فإشارة إلى العقل والعلم، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذكر (الصَّدْر)؛ فإشارة إلى ذلك وإلى سائر

الصَّدر يشمل القلب وغيره، والقلب دالٌّ على العلم والنيّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 873.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلب).

القوى: من الشَّهوة، والهوى، والغضب والخوف ونحوها، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، أي: العقول الّتي هي مُندسَّة فيما بين سائر القوى، وليست بمهتدية[1]، والصَّدر أوسع مكانًا من القلب، وهو الحاوي له، فإذا ذُكِرَ الصَّدرُ؛ فيشمل القلب، وإذا ذُكِرَ القلب؛ فيُخصُّ في العلم والنّيَّة، ولما كان القصد بيانَ شدَّة رهبة اليهود والمنافقين من المسلمين، وعظيم خوفهم منهم؛ ناسب التَّعبير بمفردة (الصُّدور)؛ لأنَّ امتلاءها بالخوف دالٌّ على شدَّة الرَّهبة وعظمتها؛ لشمولها القلوبَ.

الفِقْهُ والفَهْم:

الفقهُ فهْمُ المعاني الخفيَّة[2]، وقيل: هو العلم بمفهوم الكلام ظاهرِه الجليِّ وغامضِه الخفيِّ بسرعة فطنةٍ وجودة قريحةٍ[3]، والفَهم: هيئة للنَّفس بها يتحقَّق معاني ما يحسن، فَهِمَ فهو فَهِمٌ، واستفهمني وفهَّمته، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: 79]، وذلك إمّا بأن جَعَل الله له من فضل قوَّة الفهم ما أدرك به ذلك، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه، وخصَّه به، وتفهَّم الكلام: فهمه شيئًا بعد شيءٍ[4]، فالفهم مرحلةٌ تسبق الفقه، وأساسٌ يقوم عليه، فلا فقه بدون فهْم، لكنَّ الفقه أعمقُ من الفهم وأدقُّ، وهو يدلُّ على الفهم الدَّقيق الكليِّ.

الفهمُ مرحلةٌ تسبق الفقه، ويمثِّل حالة التَّدرُّج، والفقه أدقُّ وأشمل، ويمثل حالة الاستقرار

التشتُّت والفرقة:

الشَّتُّ أشدُّ أنواع الفراق، والفرقة انفصالٌ بين شيئين مطلقًا، وقد يكون الانفصال عميقًا وغير عميق[5]، كما أنّ الشّتات يدلُّ على

التشتُّت مبعثه الغالب أخلاقيٌّ قلبيٌّ، والفرقة مبعثها في الغالب فكريٌّ

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 392، 393.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شت)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 222.
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (شت).

الانتشار الفوضويّ غير واضح المآلات، بخلاف الفرقة فقد تكون المآلات واضحةً لدى المفترقين، ولذلك افترقوا، فمبعث الفرقة فكريٌّ في الغالب، وقد يتحوَّل إلى مظهر نفسيٍّ أخلاقيٍّ في المآل، ومبعث الشَّتات قلبيٌّ أخلاقيٌّ في الغالب، وقد تتشكَّل الأفكار بعد التشتُّت، وهذا شرُّ أنواع الفكر، أن ينشأ بعد الفرقة القلبيَّة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"